التحول من الكفر إلى الإيمان

الخطبة الأولى ١٤٠٥/١/١٠هـ

الحمد لله الذي حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، أحمده سبحانه وأشكره وأستغفره وأتوب إليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله.

أما بعد:فإن إصلاح الفرد أو الجماعة أو الشعوب لا يجيء جُزَافاً ولا يتحقق عَفْواً ، وإن الأمم لا تنهض من كَبْوَةٍ ولا تقوى من ضعف ولا ترتقي من هبوط إلا بعد تربية أصيلة حقة وتغيير نفسي عميق الجذور ، يحوِّل الْهُمُودَ فيها إلى حركة ، والْغَفْوَةَ إلى صحوة والرُّكُودَ إلى يقظة ، والْفُتُورَ إلى عزيمة ، تغيير يحول الوجهة والأخلاق والميول والعادات. سنة قائمة من سنن الله تعالى في الكون وردت في القرآن الكريم في عبارة وجيزة بليغة:قال تعالى:﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد:١١]، ولكن هذا التغيير أمر ليس بالْهَيِّنِ اليسير، إنه عبءٌ ثقيل تَنُوءُ به الكواهل ، لأن الإنسان مخلوق مركب معقد، لهذا فإنه من أصعب الصعب تغيير نفسه أو قلبه أو فكره ، ولذلك نجد أن التحكم في مياه نهر كبير أو تحويل مجراه أو حفر الأرض أو نسف الصخور أسهل بكثير من تغيير النفوس وتقليب القلوب والأفكار. إن بناء المنشآت من مصانع ومدارس وسدود أمر سهل ومقدور عليه ولكن الأمر الشاق حقاً هو بناء الإنسان وتغيير فكره وقلبه ، الإنسان المتحكم في شهواته الذي يعطي الحياة كما يأخذ منها ويؤدي واجبه كما يطلب حقه ، الإنسان الذي يعرف الحق ويؤمن به ويدافع عنه ، ويعرف الخير ويحبه للناس كما يحبه

لنفسه ويتحمل تبعته في إصلاح الفساد ، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله ، إن التغيير في هذا الإنسان أمر عسير غير يسير ،ولكننا نجد الإيمان حينما يتغلغل ويصل إلى سويداء القلوب نجده يفعل الأعاجيب بصاحبه ، فالإيمان هو الذي يُهَيِّئُ النفوسَ لتقبل المباديء مهما يَكْمُنُ وراءها من تكاليف وواجبات وتضحيات ومشقات وسب وشتم من الآخرين. وهو العنصر الوحيد الذي يغير النفوس تماماً بتوفيق الله وهدايته لأي شخص كان ويصبُّه في قالب جديد ويغير أهدافه وطرقه ووجهته وسلوكه وذوقه ومقاييسه التي كان عليها ،فلو عرفنا شخصاً واحداً في عهدين من حياته ـــ حياته الأولى الجاهلية وحياته الإيمانية ـــ لرأينا الثاني شخصاً غير الأول تماماً لا يصل بينهم إلا الاسم أو النسب أو الشكل ، وفي حديث سحرة فرعون الذين قَصَّ الله قصتهم في القرآن الكريم عبرة وذكرى لمن أراد التدبر والاتعاظ . قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٣٢-٥١]. وفي سورة طه قول الله تعالى عن تهديد فرعون للسحرة : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾[طه:٧١-٧٣].نرى كيف تغيرت شخصياتهم؟وكيف انقلبت موازينهم؟ كيف تحولت أفكارهم وقلوبهم؟ كانت هممهم مشدودة إلى المال ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾[الشعراء :٤١].وكانت آمالهم منوطة بفرعون حين أقسموا بعزته ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٤]. كان هذا مَنْطِقُهُمْ قبل أن يؤمنوا، فلما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم بالرغم من التهديد والوعيد في بساطة ويقين ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه:٧٢] بعد أن كان هَمُّهُمْ الدنيا صار همهم الآخرة ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ [طه:٧٣] وبعد أن كانوا يحلفون بعزة فرعون صاروا يحلفون بالله رب العالمين الذي فطرهم ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾[طه:٧٢] تَغَيَّرَ الاتجاه، تغير المنطق، تغير السلوك، تغيرت الألفاظ، في لحظات أصبح القوم غير القوم، فَمِنْ أَيِّ شيء كان هذا التحول السريع والتغير الفظيع !؟ إنه الإيمان الذي وصل إلى الأعماق ، وفي القصة القصيرة التي رواها الإمام مسلم في صحيحه برهان مبين على مبلغ أثر الإيمان ،ذلك أن رجلاً كان ضيفاً على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بشاة فَحُلِبَتْ، فَشَرِبَ حِلابَهَا، ثم أمر له بثانية فشرب حلابها ثم بثالثة فرابعة حتى شرب حِلاَبَ سبع شِيَاه ، وبَاتَ الرجل وتفتح قلبه للإسلام فأصبح مسلماً ، معلناً إيمانه بالله ورسوله ،

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم له في الصباح بشاة فشرب حلابها ثم أخرى لم يَسْتَتِمَّهُ ، وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم كلمته المأثورة:((**إن المؤمن ليشرب في معىً واحد والكافر ليشرب في سبعة أمعاء**)).

فيما بين يوم وليلة استحال الرجل من شَرِهٍ مُمْعِنٍ في الشّبَعِ ، حريصٍ على مَلْءِ بطنه إلى رجل قانع عفيف، ماذا تغير فيه؟ إن الذي تغير فيه قلبه ليس اللحم والعظم ، ولكنه ما بداخله ، التحول من الكفر إلى الإيمان ، كان كافراً فأصبح مؤمناً، وهل هناك أسرع أثراً في النفوس من الإيمان؟ إن السر معروف والسبب معلوم، ومَرَدّه هو إكْسِيرُ الإيمان الذي ينقل النفوس والأشخاص من حال إلى حال ومن وثنية إلى توحيد ، ومن جاهلية إلى إسلام.اللهم إنا نسألك إيماناً صادقاً ويقيناً خالصاً وحلاوةَ إيمان تباشرُ قلوبَنَا، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : ﴿ **وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨** ﴾[الحجرات:٧، ٨].

التحول من الكفر إلى الإيمان

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي هدى عباده المؤمنين ووفقهم لطاعته وحبب إليهم الإيمان وزينهم بزينة التقوى ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له الملكُ الحقُّ المبينُ ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فحسبنا مثلاً على الإيمان الصادق والتحول الإيماني الفريد رجل وامرأة عُرِفَ أمرُهما في الجاهلية وفي الإسلام !؟ الرجل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي نعرف عنه ونقرأ ما بلغ في الجاهلية قبل

إسلامه وحين انتقل من الجاهلية إلى الإسلام وتحرر عقله حتى بلغت به الحكمة وسداد الرأي إلى أن قطع شجرة الرضوان خشية أن يطول الزمن بالناس ثم يقدسونها ويقع عندها أمور شركية تناقض توحيد الله جل جلاله، قطع تلك الشجرة التي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم الحديبية حماية وصيانة لجناب التوحيد . ووقف أيضاً أمام الحجر الأسود بالكعبة فقال: أيها الحجر إني أقبلك وأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ . عمر رضي الله عنه يبلغ من سُمُوِّ عاطفته ورِقَّة قلبه وخشيته لله ما ملأ صفحات التاريخ بآيات الرحمة الشاملة للمسلم وغير المسلم وليست رحمته وعظم مسئوليته وأمانته مقتصرة على المسلمين بل على البشر كلهم بل حتى الحيوانات والدواب، ونعلم قوله المشهور عنه رضي الله عنه ــ والله لو عثرت بغلة بشط الفرات لرأيتني مسؤولاً عنها أمام الله لِمَ لَمْ أسوِّ لها الطريق ؟. هذا هو الرجل رضي الله عنه .

أما المرأة فهي الخنساء التي فقدت في الجاهلية أخاها لأبيها (صخراً) فملأت الآفاق عليه بكاءً وعويلاً وشعراً حزيناً ، ومن شعرها قولها :

يذكرني طلوعُ الشمسِ صَخْراً ـــ وأَذْكُرُه بكلِّ غروب شَمْسِ

ولولا كَثْرَة البَاكِينَ حَوْلِي ـــ على إخْوَانِهِمُ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

ولكن بعد إسلامها نراها امرأة أخرى نراها أُمّاً تُقَدِّمُ فلذات كبدها إلى الميدان ، أي ميدان الموت راضية مطمئنة بل مُحَرِّضَة دافعة لهم ، روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفرس تحت راية القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان معها بنوها الأربعة . فجلست إليهم في ليلة من الليالي الحاسمة ، تَعِظُهُمْ وتَحُثُّهُمْ على القتال والثبات وكان من قولها لهم: أَيْ بَنِيَّ ، إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم

مختارين ، والذي لا إله إلا هو إنكم لَبَنُو رجلٍ واحدٍ كما أنكم بَنُو امرأة واحدة مَا خُنْتُ أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هَجَّنْتُ حَسَبَكُمْ، ولا غَيَّرْتُ نَسَبَكُمْ ، وقد تعلمون ما أَعَدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، والله تعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠]. فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مُسْتَبْصِرِينَ وبالله على أعدائكم مُسْتَنْصِرِينَ ، فإذا رأيتم الحرب قد شَمَّرَتْ عن ساقها فَتَيَمَّمُوا وَطِيسَهَا، وجَالِدُوا رئيسَها ، تَظْفَرُوا بِالْغُنْمِ في دار الخلد، فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوب فَتِيَّة ، وأُنُوف حَمِيَّة ، إذا فَتَرَ أحدُهم ذَكَّرَهُ إِخْوَتُهُ وَصِيَّةَ أُمِّهِمُ الْعَجُوزِ ، فَزَأَرَ كَاللَّيْثِ وانطلق كَالسَّهْمِ ، وظَلُّوا كذلك حتى اسْتُشْهِدُوا واحداً بعد واحد . وبلغ الأمَّ نَعْيُ الأربعة الأبطال في يوم واحد، فلم تَلْطِمْ خَدّاً و لم تَشُقَّ جَيْباً ، ولكنها استقبلت الخبرَ بإيمان الصابرين ، وصبر المؤمنين، وقالت: الحمد لله الذي شَرَّفَنِي بِقَتْلِهِمْ وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مُسْتَقَرِّ رحمته.

ما الذي تَغَيَّر في عمر القديم وعمر الجديد ؟. وما الذي تغير في الخنساء الحزينة الباكية النائحة إلى خنساء الصبر والفداء والتضحية ؟ إنه الإيمان الصادق بالله عز وجل حيث تَغَيَّرَا من حال إلى حال ، وفي كل زمان ومكان نجد رجالاً ونساءً كانوا يعيشون في الشر والفساد فأراد الله لهم الهداية والتوفيق وعاشوا بقية حياتهم حياة إسلامية إيمانية غيرت تلك الحياة الأولى ، وفي زمننا هذا نجد من التائبين العائدين إلى الله رجالاً ونساءً ، والفرق واضح لدى الجميع بين حياتهم الأولى وما هم عليه الآن ، وذلك من فضل الله عليهم وهدايته للأخيار. فيا عباد الله علينا بالتوبة الصادقة

النصوح لنتذوق حلاوة الإيمان وتتغير حالُ كل واحد منا إلى حال أفضل مما هو عليه. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا محمد وآله.